2009052 2-0006a-r

السفير
www.assafir.com ©2009

هذا الأسبوع
تاريخ العدد ٢٠٠٩/٠٥/٢٢ العدد ١١٢٩٩

أوديت سالم، مهدي عامل ..
المستقبل لا يدوم طويلاً

عباس بيضون

لا أعرف أوديت سالم لكني حضرت جنازة امرأة لزمت أربع سنوات خيمة في وسط بيروت. لم يهتم الناعي كثيرا بخبر وفاتها، لم ينشغل كثيرا بموتها تحت عجلات سيارة. أراد أن لا تكون المسألة هنا. أرادها في انها منذ ربع قرن لم تفعل سوى انتظار ولديها اللذين اختفيا في يوم وفقد أثرهما منذ ذلك الحين. لقد ماتت منذ غابا ولا عبرة بكيفية موتها. للناعي حجته بطبيعة الحال، حادث سير لن يكون سوى حادث سير أما أربع سنوات طوال في خيمة من أجل إبقاء القضية حاضرة وماثلة فأمر آخر، اما ٢٤ سنة لم تكن لأوديت حياة ولكن صحراء انتظار وتذكر فأمر آخر. أفهم ذلك ومع ذلك لا أتغافل عن الموت دهساً. ان يرتطم جسد امرأة في الثامنة والسبعين، بحديد السيارة وأن يطير هذا الجسد عن الأرض ليخبط باسمنت الشارع. ان تمر العجلات على الجسد الطري. هذا حادث، أعلم، لكني لا أستطيع ان أفصله عن مأساة أوديت كلها. لقد كان هذا الموت تكراراً ولو على نحو آخر لحادثة الخطف نفسها. المسدس في رأسي الشاب والصبية اللذين لم يتجاوزا العشرين. القفز عليهما وادخالهما عنوة وارغامهما بالتهديد والضرب، أليس هذا شيئا يمكن ترجمته بالانسحاق تحت عجلات سيارة، والاعتداء الجسدي الروحي حتى السحق. أليس الأمر هو نفسه في الحالين، لا أعرف كيف تصرفت أوديت حيال السيارة العاتية لكني أتوجس من انها لم تكترث بأن يعصر لحمها ويتحطّم عظمها، لربما كانت هنا أيضا تلتحق بولديها. رأيت صورة ريشار وكريستين، انهما ولدان شابان، من السهل ان يكونا ولدين لأي كان، لأي فينا. رأيت صورتها تحمل صورتهما. من الواضح ان الأمر كان هكذا منذ زمن بعيد، مجرد صور تتأمل صوراً. الحياة في الخيمة هي تقريبا على هذا المستوى، الخيمة ربما تكون رمزاً لقضية، لكن ان تعيش فيها أوديت أربعة فصول كاملة على مدار أربع سنين فالأمر لا يقف عند هذا الرمز. لقد أعطت حياتها لهذه الخيمة، حياتها يوما بيوم، أرادت ان لا تكون لها حياة سوى تلك التي تستدعي كل لحظة فقدانها لولديها. أرادت لحياتها ان تكون شهادة دائمة على هذا الفقدان، أرادت أن يكون هذا الفقدان قفص حياتها. ان لا يكون للخيمة معنى الاعتصام ولا الاحتجاج وحسب ولكن معنى الحياة المماثلة للفقدان. أن تكون الخيمة نوعاً من حداد مثابر وأن يكون وجودها فيها وقفاً على هذا الحداد. لربما أرادت ان تكون حياتها موازية لما بقي من حياة ولديها، أن تكون مثلهما مجرد ذكرى وأن تكون مثلهما مجرد صورة. ان لا تكون شيئا سوى ذكرى تتذكر. سوى صورة تتأمل في صور.

لا أعرف أوديت سالم لكني بكيت حينما رأيت صورها وصور ولديها المختفيين. لم تؤثر صور من قبل كما أثرت هذه. لم تكن صوراً فحسب، كانت حياة تدنت إلى أن تكون فقط صوراً، كانت صورتها الكبيرة على الجدار أكبر بالتأكيد من حياتها. بكيت لأني فهمت فوراً أن على هذا اللوح كل شيء. كل ما امتلكته أوديت كان هنا، لأنها منذ زمن طويل لم تعد تملك شيئا حقيقيا، بقي لها أثر الأشياء فحسب. كانت وراء هذا الأثر، واليوم تغيب هي كأنها لم

2009052t_00066_r2

تغب، لقد صارت بدورها أثراً. لم يتبدل شيء. انها موجودة على الحائط بالقدر الذي يوجد به اولادها، وهي على كل حال لم ترد شيئا آخر.
فهمت انها احتفظت بأغراض ريشار وكريستين كما هي في غرفتيهما. صديقة لي تعرفها قالت انها كانت تنظر في هذه الأغراض وتقول لن أتصرف فيها. عندما يعودان، أي ريشار وكريستين سيتصرفان فيها كما يريدان، هل كانت تقول ذلك لنفسها أم لغيرها .ليس مهما ان نعرف اذا كانت تؤمن حقا بعودتهما. الايمان مراوغ ويتدبر كل مرة سبباً آخر ليتجدد. الأموات نطردهم في العادة، اغراضهم نفرقها، نحسن بها لكن المخطوفين ليسوا أمواتا، وهذا هو الفارق. الخطف يتجدّد باستمرار، انه حدث دائم. ليس بسبب الفقدان فحسب ولا لأن النهاية مجهولة فحسب. الخطف حدث يعاد تخيله كل يوم على نحو جديد، يتم تعديله كل يوم بحيث يبدو وكأنه يعاود الحدوث باستمرار، مخيلة الأهل تغدو قفصا للمخطوفين وفي النهاية يتحولون هم إلى مخطوفين أيضا. أوديت كانت المثل، لقد طبقته حرفيا. مقابل الزنزانة المفترضة عاشت في خيمة. مقابل الأثر تحولت هي الى أثر، وفي النهاية انسحقت كما انسحق الولدان. لحظة الحادث كانت تطابقا يعادل الوحدة. لقد اكتمل الرمز هكذا واكتملت المأساة.
لكن مصرع أوديت على هذا النحو انذارا لنا جميعاً. في جنازتها ابتعدوا عن التسييس فهناك حتى في هذه المسألة انقسام، مخطوفو القوات ومخطوفو السوريين. لكن لحظة «الحقيقة» كانت هنا بدون ان ينتبه لها أحد، فالجميع أدمنوا المفارقات إلى حد بات صعبا معه أن يلاحظوها. كان هنا التردي في المأساة. كان هنا بلد بلا سقف ومواطن لا تحميه سوى مواضعات موروثة برسم من يحترمها .ولا تزال اللحظة للإباحة والعدوان، ليس من الضرورة أن نقول كم يبدو دونكيشوتيا الحديث عن دولة وجمهورية واستقلال فيما الخطف من الشارع لا يزال ممكناً ويتم غالبا بلا عقاب. كان دهس (لماذا نخاف من الكلمة) أوديت بعد خطف ولديها هو المثل وكل لبناني يستطيع ان يجد نفسه فيه. لا شيء ينجي أياً منا من الخطف والدهس. في الحقيقة نحن مخطوفون ومهددون بالدهس، ولا يبدو ان هناك سبيلا لانقاذنا. انتظرت أوديت ٢٤ عاما ونحن ننتظر من زمن أطول، وأخشى ان ليس لدى السماء لنا أكثر مما منحته لأوديت.

-٢-
شرفني أنني كنت بين الذين ساجلهم مهدي عامل في كتابه الأخير «نقد الفكر اليومي» مثلي مثل موسى وهبه والياس خوري وجوزف سماحة. الغريب أن هذا الكتاب مساجلة مع اشخاص ليس فيهم الا من يعتبر مهدي صديقاً. لم ينفع حسم مهدي النظري في حجب هذه الحقيقة، لقد كان هذا الكتاب لقاء صداقة. واليوم في ذكرى حسن حمدان يعزينا أننا كنا في باله آخر أيامه. قبل ان يقترف القتلة جريمة معنونة واضحة، كما في مقتلة كمال يوسف الحاج لا يزال العنوان واضحا، انه صاحب الرأي الذي لا يطيق شريكا .
لا أعرف أين كان صار حسن حمدان (مهدي) لو عاش إلى الآن، وبعدما حدث ما حدث للشيوعية وللمنطقة وللبنان. لكني واثق من اننا لا نجنبه شيئا اذا أخرنا قراءته. كان حسن حمدان، فيما يقول، يكتب للمستقبل. كان يتخيل المستقبل من جنس الحاضر ولم يخطر له بالطبع انه، فيما بعد سيفوق الخيال، مع ذلك لست أكيدا من أن المستقبل لا يخدمه، كان لمهدي دائما فتنته. فتنة من كانت المحاجحة فنه، ولا أعرف اذا كان هذه بقيت كفن بعد أن تجردت من ظروفها وملابساتها. لم أعد قراءة مهدي ولم أتحقق من ذلك لكن ثمة استشعار من أن شغف حسن وابنيته المنطقية وثنائياته ونفسه السجالي، كل هذا ليس بعيدا عن الأدب. ولذلك يمكنه ان يطرفنا مرة أخرى .
لست الآن لأناقش اثر حسن حمدان لكن الرجل، الرجل كان فناناً أكثر من أي منا. يخطر لي أحيانا ان المفكر فيه كان دورا مسرحيا، وأن عددا من مواقفه الصاخبة كان صنيعة الشغف .
بقينا أصدقاء ولم يؤثر في ذلك الخلاف. كنا نعرف انه شبيهنا حتى ولو بدت مغامرتنا

20090522_0006C-2

مختلفة. يا عدوي يا أخي أكرر كلام بودلير، فالصداقة كالحب منذورة للخيانة، وكم هي الخيانات ضرورية لتثبيتها. وها ذكرى حسن مناسبة لاعلان تلك الخيانة الكبيرة التي خضناها، وللأسف فات وقتها .

ليس بين أوديت سالم وحسن حمدان رابط واضح، لكننا نشعر انه الرهان نفسه، وعلى عكس عنوان آخر كتب التوسير يمكننا أن نقول ان «المستقبل لا يدوم طويلاً».